



الباب الثاني

تفاصيل المنهج القرآني في

حوار ومجادلة أهل الكتاب

الدروس والعبر
شرح تحليلي للآيات ذات العلاقة بالموضوع



الفصل الأول: في مجال العقيدة

المبحث الأول: مواقف اليهود وعبادة الملائكة والرسل

المطلب الأول:

مطالبة بني إسرائيل بالإيمان بالقرآن

{وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاي فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاٰكِعِينَ} (١)

القول في تأويل قوله تعالى: {وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ} قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "آمنوا"، صدقوا، ويعني بقوله: "بما أنزلت"، ما أنزل على محمد ﷺ من القرآن ويعني بقوله: "مصدقًا لما معكم"، أن القرآن مصدق لما مع اليهود من بني إسرائيل من التوراة فأمرهم بالتصديق بالقرآن، وأخبرهم جل ثناؤه أن في تصديقهم بالقرآن تصديقًا منهم للتوراة، لأن الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وتصديقه واتباعه، نظير الذي من ذلك في التوراة والإنجيل ففي تصديقهم بما نزل على محمد تصديقٌ منهم لما معهم من التوراة، وفي تكذيبهم به تكذيبٌ منهم لما معهم من التوراة (٢)

ولقد كان المنتظر أن يكون اليهود في المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة ويؤمن للرسول الجديد؛ مذ كان القرآن يصدق ما جاء في التوراة في عمومها؛ ومذ كانوا هم يتوقعون رسالة هذا الرسول، وعندهم أوصافه في البشارات التي يتضمنها كتابهم؛ وهم كانوا يستفتحون به على العرب المشركين

وهذا الدرس هو الشطر الأول من هذه الجولة الواسعة مع بني إسرائيل؛ بل هذه الحملة الشاملة لكشف موقفهم وفضح كيدهم؛ بعد استنفاد كل وسائل الدعوة معهم لترغيبهم في الإسلام، والانضمام إلى موكب الإيمان بالدين الجديد

يبدأ هذا الدرس بنداء علوي جليل إلى بني إسرائيل، يذكرهم بنعمته - تعالى - عليهم ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ليوفي بعهدهم معهم، وإلى تقواه وخشيته؛ يمهد بها

(١) سورة البقرة: ٤١ - ٤٣.

(٢) تفسير الطبري صفحة ٧.

لدعوتهم إلى الإيمان بما أنزله مصدقا لما معهم ويندد بموقفهم منه، وكفرهم به أول من يكفر! كما يندد بتلبيسهم الحق بالباطل وكتمان الحق ليموهوا على الناس - وعلى المسلمين خاصة - ويشيعوا الفتنة والبلبلة في الصف الإسلامي، والشك والارتياب في نفوس الداخلين في الإسلام الجديد ويأمرهم أن يدخلوا في الصف فيقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويركعوا مع الراكعين، مستعينين على قهر نفوسهم وتطويعها للاندماج في الدين الجديد بالصبر والصلاة وينكر عليهم أن يكونوا يدعون المشركين إلى الإيمان، وهم في الوقت ذاته يأبون أن يدخلوا في دين الله مسلمين!

ثم يبدأ في تذكيرهم بنعم الله التي أسبغها عليهم في تاريخهم الطويل مخاطباً الحاضرين منهم كما لو كانوا هم الذين تلقوا هذه النعم على عهد موسى - عليه السلام - وذلك باعتبار أنهم أمة واحدة متضامنة الأجيال، متحدة الجبل^(١)

* * * * *

المطلب الثاني:

مواقف اليهود من الرسل والكتب والأنبياء

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمُنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}{^(٢)

ولقد كانت حجة بني إسرائيل في إعراضهم عن الإسلام، وإبائهم الدخول فيه، أن عندهم الكفاية من تعاليم أنبيائهم، وأنهم ماضون على شريعتهم ووصاياهم فهنا يفضحهم

(١) ظلال القرآن سيد قطب/ صفحة ٧.

(٢) البقرة: ٨٧ - ٩١.

القرآن ويكشف عن حقيقة موقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ووصاياهم ويثبت أنهم هم هم كلما واجهوا الحق، الذي لا يخضع لأهوائهم

وفيما تقدم واجههم بالكثير من مواقفهم مع نبيهم موسى - عليه السلام - وقد آتاه الله الكتاب ويزيد هنا أن رسلهم توالى تترى، يقفو بعضهم بعضاً؛ وكان آخرهم عيسى ابن مريم وقد آتاه الله المعجزات البينات، وأيده بروح القدس جبريل - عليه السلام - فكيف كان استقبالهم لذلك الحشد من الرسل ولآخرهم عيسى عليه السلام؟ كان هذا الذي يستنكره عليهم؛ والذي لا يملكون هم إنكاره، وكتبهم ذاتها تقرره وتشهد به: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

ظاهرة تبدو كلما فسدت الفطرة، وانطمست فيها عدالة المنطق الإنساني ذاته المنطق الذي يقتضي أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت - غير المصدر الإنساني المنقلب - مصدر لا يميل مع الهوى، ولا تغلبه النزوة وأن يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت الذي لا يتأرجح مع الرضى والغضب، والصحة والمرض، والنزوة والهوى، لا أن يخضعوا الميزان ذاته للنزوة والهوى!

ولقد قص الله على المسلمين من أنباء بني إسرائيل في هذا ما يحذرهم من الوقوع في مثله، حتى لا تسلب منهم الخلافة في الأرض والأمانة التي ناطها بهم الله، فلما وقعوا في مثل ما وقع فيه بنو إسرائيل، وطرحوا منهج الله وشريعته، وحكموا أهواءهم وشهواتهم، وقتلوا فريقاً من الهداة وكذبوا فريقاً ضربهم الله بما ضرب به بني إسرائيل من قبل، من الفرقة والضعف، والذلة والهوان، والشقاء والتعاسة إلا أن يستجيبوا لله ورسله، وإلا أن يخضعوا أهواءهم لشريعته وكتابه، وإلا أن يفوا بعهد الله معهم ومع أسلافهم، وإلا أن يأخذوه بقوة، ويذكروا ما فيه لعلمهم يهتدون

ذلك كان موقفهم مع أنبيائهم، يبينه ويقرره، ثم يجابهم بموقفهم من الرسالة الجديدة والنبي الجديد، فإذا هم هم، كأنهم أولئك الذين جابهوا الأنبياء من قبل:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلٍ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * نَسِمَا اسْتَرَوَا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكُفِّرُوا بِمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

ويوضح السبب الخفي لهذا الموقف الشائن الذي وقفوه؛ بعد أن يقرر خسارة الصفقة التي اختاروها:

{بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ} (١)

بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا لكان هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما، يكثر أو يقل

أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ولكن هذا هو الواقع وإن بدا تمثيلاً وتصويراً لقد خسروا أنفسهم في الدنيا فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز ولقد خسروا أنفسهم في الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين وبماذا خرجوا في النهاية؟ خرجوا بالكفر، هو وحده الذي كسيوه وأخذوه!

وكان الذي حملهم على هذا كله هو حسدهم لرسول الله ﷺ أن يختاره الله للرسالة التي انتظروها فيهم، وحقدهم لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده وكان هذا بغياً منهم وظلماً فعادوا من هذا الظلم بغضب على غضب؛ وهناك ينتظرهم عذاب مهين، جزاء الاستكبار والحسد والبغي الذميم

وهذه الطبيعة التي تبدو هنا في يهود هي الطبيعة الكنود، طبيعة الأثرة الضيقة التي تحيا في نطاق من التعصب شديد؛ وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع منها؛ ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى، التي تربط البشرية جميعاً

وهكذا عاش اليهود في عزلة، يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة؛ ويتربصون بالبشرية الدوائر؛ ويكونون للناس البغضاء، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن، ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد فتناً يوقدونها بين بعض الشعوب وبعض، وحروباً يثيرونها ليجروا من ورائها المغانم، ويروون بها أحقادهم التي لا تتطفئ، وهلاكاً يسلطونه على الناس، ويسلطه عليهم الناس وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة: {بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ}

وكان هذا هو الذي يقولونه إذا دعوا إلى الإيمان بالقرآن وبالإسلام كانوا يقولون: {نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا} ففيه الكفاية، وهو وحده الحق، ثم يكفرون بما وراءه سواء ما جاءهم به عيسى عليه السلام، وما جاءهم به محمد خاتم النبيين

والقرآن يعجب من موقفهم هذا، ومن كفرهم بما وراء الذي معهم، {وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ} وما لهم وللحق؟ وما لهم أن يكون مصدقاً لما معهم! ما داموا لم يستأثروا هم به؟ إنهم يعبدون أنفسهم، ويتعبدون لعصبيتهم لا بل إنهم ليعبدون هواهم، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم أنبياءهم به ويلقن الله نبيه ﷺ أن يجبههم بهذه الحقيقة، كشفاً لموقفهم وفضحاً لدعواهم:

{قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}

لم تقتلون أنبياء الله من قبل، إن كنتم حقاً تؤمنون بما أنزل إليكم؟ وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاؤوكم بما تدعون أنكم تؤمنون به؟

لا بل إنكم كفرتم بما جاءكم به موسى - نبيكم الأول ومنقذكم الأكبر (١)

* * * * *

المطلب الثالث:

عبادة العجل عند اليهود وحب الحياة وعداوة الملائكة والرسل

{وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَيْتُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهِنَّ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْحَرَجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} (٢)

(١) ظلال القرآن سيد قطب/ صفحة ١٧.

(٢) البقرة: ٩٢/٩٨.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ} لم يبين هنا ما هذه البيّنات وبينها في مواضع أخر كقوله: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيَاتٍ مَّفْصَلَاتٍ} (١)، وقوله: {فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ} (٢)، وقوله: {فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ} (٣) الآية إلى غير ذلك من الآيات قوله تعالى: {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاَسْمِعُوا}

قال بعض العلماء: هو من السمع بمعنى الإجابة، ومنه قولهم سمعاً وطاعة أي: إجابة وطاعة، ومنه: سمع الله لمن حمده في الصلاة أي: أجاب دعاء من حمده، ويشهد لهذا المعنى قوله: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} (٤)، وهذا قول الجمهور، وقيل: إن المراد بقوله: {وَأَسْمِعُوا} أي: بأذانكم، ولا تمتنعوا من أصل الاستماع

ويدل لهذا الوجه: أن بعض الكفار ربما امتنع من أصل الاستماع خوف أن يسمع كلام الأنبياء، كما في قوله تعالى عن نوح مع قومه: {وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا} (٥) وقوله عن قوم نبينا ﷺ: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ} (٦)

وقوله: {وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْمُتُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا} (٧)، وقوله: {قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا} لأن السمع الذي لا ينافي العصيان هو السمع بالأذان دون السمع بمعنى الإجابة (٨)

اعلم أن هذا نوع آخر من قبائحهم وهو ادعائهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من

(١) الأعراف: ١٣٣.

(٢) الأعراف: ١٠٧ - ١٠٨.

(٣) الشعراء: ٦٣.

(٤) النور: ٥١.

(٥) نوح: ٧.

(٦) فصلت: ٢٦.

(٧) الحج: ٧٢.

(٨) تفسير الشنقيطي صفحة/ ١٤.

دون الناس ويدل عليه وجوه

أحدها: أنه لا يجوز أن يقال على طريق الاستدلال على الخصم إن كان كذا وكذا فافعل كذا إلا والأول مذهبه ليصح الزام الثاني عليه

وثانيها: ما حكى الله عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارًا﴾^(١) وفي قوله: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾^(٢)

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾^(٣)

وثالثها: اعتقادهم في أنفسهم أنهم هم المحقون لأن النسخ غير جائز في شرعهم، وأن سائر الفرق مبطلون

ورابعها: اعتقادهم أن انتسابهم إلى أكابر الأنبياء عليهم السلام أعني يعقوب وإسحاق وإبراهيم يخلصهم من عقاب الله تعالى ويوصلهم إلى ثوابه، ثم إنهم لهذه الأشياء عظموا شأن أنفسهم فكانوا يفتخرون على العرب وربما جعلوه كالحجة في أن النبي المنتظر المبشر به في التوراة منهم لا من العرب وكانوا يصرفون الناس بسبب هذه الشبهة عن اتباع محمد ﷺ، ثم إن الله احتج على فساد قولهم بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدار الآخرة عند الله خالصةً من دون الناس فتمنوا الموت﴾ وبيان هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة بالمقاييس إلى نعم الآخرة، ثم إن نعم الدنيا على قلتها كانت منغصة عليهم بسبب ظهور محمد ﷺ ومنازعة معهم بالجدال والقتال، ومن كان في النعم القليلة المنغصة، ثم إن تيقن أنه بعد الموت لا بد وأن ينتقل إلى تلك النعم العظيمة فإنه لا بد وأن يكون راغباً في الموت لأن تلك النعم العظيمة مطلوبة ولا سبيل إليها إلا بالموت وما يتوقف عليه المطلوب وجب أن يكون مطلوباً فوجب أن يكون هذا الإنسان راضياً بالموت متمنياً له، فثبت أن الدار الآخرة لو كانت لهم خالصة لوجب أن يتمنوا الموت، ثم إن الله تعالى أخبر أنهم ما تمنوا الموت بل لن يتمنوه أبداً، وحينئذ يلزم قطعاً بطلان ادعائهم في قولهم إن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس^(٤)

(١) البقرة: ١١١.

(٢) المائدة: ١٨.

(٣) البقرة: ٨٠.

(٤) تفسير الرازي صفحة / ١٤.

ويقول سيد قطب رحمه الله:

وتلك الصورة الساخرة الهازئة: صورة العجل يدخل في القلوب إدخالاً، ويحشر فيها حشراً، حتى ليكاد ينسى المعنى الذهني الذي جاءت هذه الصورة المجسمة لتؤديه، وهو حبهم الشديد لعبادة العجل، حتى لكأنهم أشربوه إشراباً في القلوب! هنا تبدو قيمة التعبير القرآني المصور، بالقياس إن التعبير الذهني المفسر إنه التصوير السمة البارزة في التعبير القرآني الجميل

ثم لقد كانوا يطلقونها دعوى عريضة إنهم شعب الله المختار إنهم وحدهم المهتدون إنهم وحدهم الفائزون في الآخرة إنه ليس لغيرهم من الأمم في الآخرة عند الله نصيب وهذه الدعوى تتضمن أن المؤمنين بمحمد ﷺ لا نصيب لهم في الآخرة والهدف الأول هو زعزعة ثقتهم بدينهم وبعود رسولهم وعود القرآن لهم فأمر الله نبيه ﷺ أن يدعو اليهود إلى مباهلة أي بأن يقف الفريقان ويدعوا الله بهلاك الكاذب منهما: {قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ويعقب على هذا التحدي بتقرير أنهم لن يقبلوا المباهلة، ولن يطلبوا الموت لأنهم يعلمون أنهم كاذبون؛ ويخشون أن يستجيب الله فيأخذهم وهم يعلمون أن ما قدموه من عمل لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة وعندئذ يكونون قد خسروا الدنيا بالموت الذي طلبوه، وخسروا الآخرة بالعمل السيء الذي قدموه ومن ثم فإنهم لن يقبلوا التحدي فهم أحرص الناس على حياة وهم والمشركون في هذا سواء:

{وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهِنَّ أحرصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضَخِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}

لن يتمنوه لأن ما قدمته أيديهم للآخرة لا يطمعهم في ثواب، ولا يؤمنهم من عقاب إنه مدخر لهم هناك، والله عليم بالظالمين وما كانوا يعملون وليس هذا فحسب ولكنها خصلة أخرى في يهود، خصلة يصورها القرآن صورة تفيض بالزراية وتنضح بالتحقير والمهانة: {وَلَتَجِدَنَّهِنَّ أحرصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} (١)

أية حياة، لا يهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الإطلاق! حياة فقط! حياة بهذا التكثير والتحقير! حياة ديدان أو حشرات! حياة والسلام! إنها يهود، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة فإذا وجدت المطرقة

(١) سورة البقرة: ٩٦.

نكست الرؤوس، وعتت الجباه جنباً وحرصاً على الحياة أي حياة!
{وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}

يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله، ولا يحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة

وما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقتها حين تحس النفس الإنسانية أنها لا تتصل بحياة سواها، ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة إن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة نعمة فيفيضها الإيمان على القلب نعمة يهبها الله للفرد الفاني العاني، المحدود الأجل الواسع الأمل وما يخلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود، إلا وحقيقة الحياة في روحه ناقصة أو مطموسة

فالإيمان بالآخرة - فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق، وجزائه الأوفى - هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية، وعلى امتلاء بالحياة لا يقف عند حدود الأرض؛ إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق، الذي لا يعلم إلا الله مداه، وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صعوداً إلى جوار الله

ويمضي السياق بتلقين جديد من الله لرسوله ﷺ يتحداهم به، ويعلم الحقيقة التي يتضمنها على رؤوس الأشهاد:

{قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}

وفي قصة هذا التحدي نطلع على سمة أخرى من سمات يهود سمة عجيبة حقاً لقد بلغ هؤلاء القوم من الحنق والغیظ من أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده مبلغاً يتجاوز كل حد، وقادهم هذا إلى تناقض لا يستقيم في عقل لقد سمعوا أن جبريل ينزل بالوحي من عند الله على محمد ﷺ ولما كان عداؤهم لمحمد قد بلغ مرتبة الحقد والحنق فقد لج بهم الضغن أن يخرعوا قصة واهية وحجة فارغة، فيزعوا أن جبريل عدوهم، لأنه ينزل بالهلاك والدمار والعذاب؛ وأن هذا هو الذي يمنعهم من الإيمان بمحمد من جراء صاحبه جبريل! ولو كان الذي ينزل إليه بالوحي هو ميكائيل لآمنوا، فميكائيل ينتزل بالرخاء والمطر والخصب!

إنها حماقة المضحكة، ولكن الغيظ والحقد يسوقان إلى كل حماقة وإلا فما بالهم يعادون جبريل؟ وجبريل لم يكن بشراً يعمل معهم أو ضدهم، ولم يكن يعمل بتصميم من عنده وتدبير؟ إنما هو عبد الله يفعل ما يأمره ولا يعصى الله ما أمره!

{قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ}

فما كان له من هوى شخصي، ولا إرادة ذاتية، في أن ينزله على قلبك، إنما هو منفذ لإرادة الله وإذنه في تنزيل هذا القرآن على قلبك والقلب هو موضع التلقي، وهو الذي يفقه بعد التلقي، ويستقر هذا الكتاب فيه ويحفظ والقلب يعبر به في القرآن عن قوة الإدراك جملة وليس هو هذه العضلة المعروفة بطبيعة الحال

نزله على قلبك {مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}

والقرآن يصدق في عمومه ما سبقه من الكتب السماوية، فأساس دين الله واحد في جميع الكتب السماوية وجميع الديانات الإلهية وهو هدى وبشرى للقلوب المؤمنة، التي تنفتح له وتستجيب وهذه حقيقة ينبغي إبرازها إن نصوص القرآن لتسكب في قلب المؤمن من الإناس، وتفتح له من أبواب المعرفة، وتفيض فيه من الإيحاءات والمشاعر ما لا يكون بغير الإيمان، ومن ثم يجد فيه الهدى، كما يستروح فيه البشري وكذلك نجد القرآن يكرر هذه الحقيقة في مناسبات شتى **{هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}** **{هُدًى لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}** **{هُدًى لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}** **{شِفَاءً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ}** فالهدى ثمرة الإيمان والتقوى واليقين

وبنو إسرائيل لم يكونوا يؤمنون أو يتقون أو يوقنون!

وكانوا - كعادتهم في تفريق الدين وتفريق الرسل - قد فرقوا بين ملائكة الله الذين يسمعون أسماءهم وأعمالهم، فقالوا: إنهم على صداقة مع ميكائيل أما مع جبريل فلا! لذلك جمعت الآية التالية جبريل وميكال وملائكة الله ورسله، لبيان وحدة الجميع، ولإعلان أن من عادى أحداً منهم فقد عاداهم جميعاً، وعادى الله سبحانه، فعاداه الله فهو من الكافرين

{مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} (١)

* * * * *

المطلب الرابع :

كفر اليهود بالقرآن، ونقضهم العهد واشتغالهم بالسحر

ثم يتجه بالخطاب إلى الرسول ﷺ يثبتته على ما أنزل عليه من الحق، وما آتاه من الآيات البينات، مقررًا أنه لا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون المنحرفون ويندد ببني إسرائيل الذين لا يستقيمون على عهد سواء عهدهم مع ربهم وأنبيائهم من قبل، أو عهدهم مع رسول الله ﷺ كما يندد بنبذهم لكتاب الله الأخير الذي جاء مصداقاً لما معهم:

{وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ * أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانْتَهُمُ لَا يَعْلَمُونَ} لقد كشف القرآن هنا عن علة كفر بني إسرائيل بتلك الآيات البينات التي أنزلها الله، إنه الفسوق وانحراف الفطرة، فالطبيعة المستقيمة لا يسعها إلا الإيمان بتلك الآيات، وهي تفرض نفسها فرضاً على القلب المستقيم، فإذا كفر بها اليهود - أو غيرهم - فليس هذا لأنه لا مقنع فيها ولا حجة، ولكن لأنهم هم فاسدوا الفطرة فاسقون

ثم يلتفت إلى المسلمين - وإلى الناس عامة - مندداً بهؤلاء اليهود، كاشفاً عن سمة من سماتهم الوبيلة إنهم جماعة مفككة الأهواء - رغم تعصبها الذميم - فهم لا يجتمعون على رأي، ولا يثبتون على عهد، ولا يستمسكون بعروة ومع أنهم متعصبون لأنفسهم وجنسهم، يكرهون أن يمنح الله شيئاً من فضله لسواهم، إلا أنهم - مع هذا - لا يستمسكون بوحدة، ولا يحفظ بعضهم عهد بعض، وما من عهد يقطعونه على أنفسهم حتى تندمهم فرقة فتنقض ما أبرموا، وتخرج على ما أجمعوا: {أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}

وقد أخلفوا ميثاقهم مع الله تحت الجبل، ونبذوا عهدهم مع أنبيائهم من بعد، وأخيراً نبذ فريق منهم عهدهم الذي أبرموه مع النبي ﷺ أول مقدمه إلى المدينة؛ وهو العهد الذي وادعهم فيه بشروط معينة، بينما كانوا هم أول من أعان عليه أعداءه؛ وأول من عاب دينه، وحاول بث الفرقة والفتنة في الصف المسلم، مخالفين ما عاهدوا المسلمين عليه وبئس هي من خلة في اليهود! تقابلها في المسلمين خلة أخرى على النقيض، يعانها

رسول الله ﷺ في قوله: «المسلمون تكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم» يسعى بذمتهم أدناهم، فلا يخيس أحد بعهدده إذا عاهد، ولا ينقض أحد عقده إذا أبرم، ولقد كتب أبو عبيدة - رضي الله عنه - وهو قائد لجيش عمر - رضي الله عنه - وهو الخليفة يقول: إن عبداً أمن أهل بلد بالعراق وسأله رأيته فكتب إليه عمر: إن الله عظم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا فوفوا لهم وانصرفوا عنهم وهذه سمة الجماعة الكريمة المتماسكة المستقيمة وذلك فرق ما بين أخلاق اليهود الفاسقين وأخلاق المسلمين الصادقين

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}

وكان هذا مظهراً من مظاهر نقض فريق لكل عهد يعاهدونه فلقد كان ضمن الميثاق الذي أخذه الله عليهم: أن يؤمنوا بكل رسول يبعثه، وأن ينصروه ويحترموا فلما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، خاسوا بذلك العهد، ونبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم، يستوي في هذا النبذ كتاب الله الذي معهم، والذي يتضمن البشرى بهذا النبي وقد نبذوه، والكتاب الجديد مع النبي الجديد وقد نبذوه أيضاً!

وفي الآية ما فيها من سخرية خفية، يحملها ذلك النص على أن الذين أوتوا الكتاب هم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ليجروا خلف أساطير غامضة لا تستند إلى حقيقة ثابتة

{وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَيْئَسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} (١)

لقد تركوا ما أنزل الله مصدقاً لما معهم؛ وراحوا يتتبعون ما يقصه الشياطين عن عهد سليمان، وما يضللون به الناس من دعاوى مكذوبة عن سليمان، إذ يقولون: إنه كان ساحراً، وإنه سخر ما سخر عن طريق السحر الذي كان يعلمه ويستخدمه

(١) سورة البقرة: ١٠٢.

والقرآن ينفي عن سليمان - عليه السلام - أنه كان ساحراً، فيقول:

{وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ}

فكانه يعد السحر واستخدامه كفراً ينفيه عن سليمان - عليه السلام - ويثبته للشياطين:

{وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} ثم ينفي أن السحر منزل من عند الله على الملكين: هاروت وماروت اللذين كان مقرهما بابل: **{وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ}** ويبدو أنه كانت هناك قصة معروفة عنهما، وكان اليهود أو الشياطين يدعون أنهما كانا يعرفان السحر ويعلمانه للناس، ويزعمان أن هذا السحر أنزل عليهما! فنفي القرآن هذه الفرية أيضاً فرية تنزيل السحر على الملكين

ثم يبين الحقيقة، وهي أن هذين الملكين كانا هناك فتنة وابتلاء للناس لحكمة مغيبة وأنهما كانا يقولان لكل من يجيء إليهما، طالباً منهما أن يعلماه السحر:

{وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ} ومرة أخرى نجد القرآن يعتبر

السحر وتعلمه واستخدامه كفراً؛ ويذكر هذا على لسان الملكين: هاروت وماروت

وقد كان بعض الناس يصبر على تعلم السحر منهما، على الرغم من تحذيره وتبصيره وعندئذ تحق الفتنة على بعض المفتونين: **{فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ}** وهو الأذى والشر الذي حذرهم منه الملكان

وهنا يبادر القرآن فيقرر كلية التصور الإسلامي الأساسية، وهي أنه لا يقع شيء في هذا الوجود إلا بإذن الله: **{وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}**

فإذن الله تفعل الأسباب فعلها وتنشئ آثارها وتحقق نتائجها وهذه قاعدة كلية في التصور لا بد من وضوحها في ضمير المؤمن تماماً وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في مثل هذا المقام، أنك إذا عرضت يدك للنار فإنها تحترق ولكن هذا الاحتراق لا يكون إلا بإذن الله فالله هو الذي أودع النار خاصية الحرق وأودع يدك خاصية الاحتراق بها وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها؛ كما وقع لإبراهيم - عليه السلام - وكذلك هذا السحر الذي يفرقون به بين المرء وزوجه، ينشئ هذا الأثر بإذن الله وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية فيه حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها وهكذا بقية ما نتعارف عليه بأنه مؤثرات وآثار كل مؤثر مودع خاصية التأثير بإذن الله،

فهو يعمل بهذا الإذن، ويمكن أن يوقف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين يشاء
ثم يقرر القرآن حقيقة ما يتعلمون، وما يفرقون به بين المرء وزوجه إنه شر عليهم
هم أنفسهم لا خير: **{وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ}**

ويكفي أن يكون هذا الشر هو الكفر ليكون ضراً خالصاً لا نفع فيه!

{وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ}

ولقد علموا أن الذي يشتريه لا نصيب له في الآخرة، فهو حين يختاره ويشتريه
يفقد كل رصيد له في الآخرة وكل نصيب

فما أسوأ ما باعوا به أنفسهم لو كانوا يعلمون حقيقة الصفة: **{وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ
أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}**

{وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}

وينطبق هذا القول على الذين كانوا يتعلمون السحر من الملكين ببابل، وعلى الذين
يتبعون ما تقصه الشياطين عن عهد سليمان وملكه، وهم اليهود الذين ينبذون كتاب الله
وراءهم ظهرياً، ويتبعون هذا الباطل وهذا الشر الذميم

وبعد فلا بد من كلمة هنا عن السحر، وعما يفرق بين المرء وزوجه، مما كان
أولئك اليهود يجرون خلفه، ويتركون كتاب الله وراء ظهورهم من أجله

إنه ما يزال مشاهداً في كل وقت أن بعض الناس يملكون خصائص لم يكشف العلم
عن كنهها بعد

لقد سمي بعضها بأسماء ولكنه لم يحدد كنهها ولا طرائقها! هذا "التيليپاثي" -
التخاطر عن بعد - ما هو؟ وكيف يتم؟ كيف يملك إنسان أن يدعو إنساناً على أبعاد
وفواصل لا يصل إليها صوت الإنسان في العادة ولا بصره، فينتقل عنه، دون أن تقف
بينهما الفواصل والأبعاد؟

وهذا التنويم المغنطيسي ما هو وكيف يتم؟ كيف يقع أن تسيطر إرادة على إرادة،
وأن يتصل فكر بفكر، فإذا أحدهما يوحي إلى الآخر، وإذا أحدهما يتلقى عن الآخر،
كأنما يقرأ من كتاب مفتوح؟

إن كل ما استطاع العلم أن يقوله إلى اليوم في هذه القوى التي اعترف بها، هو أن أعطاها أسماء! ولكنه لم يقل قط: ما هي؟ ولم يقل قط كيف تتم؟

وثمة أمور كثيرة أخرى يماري فيها العلم إما لأنه لم يجمع منها مشاهدات كافية للاعتراف بها؛ وإما لأنه لم يهتد إلى وسيلة تدخلها في نطاق تجاربه هذه الأحلام التنبؤية - وفرويد الذي يحاول إنكار كل قوة روحية لم يستطع إنكار وجودها - كيف أرى رؤيا عن مستقبل مجهول، ثم إذا هذه النبوءة تصدق في الواقع بعد حين؟ وهذه الأحاسيس الخفية التي ليس لها اسم بعد كيف أحس أن أمراً ما سيحدث بعد قليل أو أن شخصاً ما قادم بعد قليل؛ ثم يحدث ما توقعته على نحو من الأنحاء!

إنه من المكابرة في الواقع أن يقف إنسان لينفي ببساطة مثل هذه القوى المجهولة في الكائن البشري، لمجرد أن العلم لم يهتد بعد إلى وسيلة يجرب بها هذه القوى وليس معنى هذا هو التسليم بكل خرافة، والجري وراء كل أسطورة إنما الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنساني أمام هذه المجاهيل موقفاً مرناً لا ينفي على الإطلاق ولا يثبت على الإطلاق، حتى يتمكن بوسائله المتاحة له بعد ارتقاء هذه الوسائل من إدراك ما يعجز الآن عن إدراكه؛ أو يسلم بأن في الأمر شيئاً فوق طاقته، ويعرف حدوده، ويحسب للمجهول في هذا الكون حسابه

السحر من قبيل هذه الأمور وتعليم الشياطين للناس من قبيل هذه الأمور وقد تكون صورة من صورته: القدرة على الإحياء والتأثير، إما في الحواس والأفكار، وإما في الأشياء والأجسام وإن كان السحر الذي ذكر القرآن وقوعه من سحرة فرعون كان مجرد تخيل لا حقيقة له: {يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} - ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه، وبين الصديق وصديقه فالانفعالات تنشأ من التأثيرات وإن كانت الوسائل والآثار، والأسباب والمسببات، لا تقع كلها إلا بإذن الله، على النحو الذي أسلفنا أما من هما الملكان: هاروت وماروت؟ ومتى كانا ببابل؟ فإن قصتهما كانت متعارفة بين اليهود (1)

* * * * *

المطلب الخامس :

تذكير اليهود بنعم الله عليهم لعلهم يخافوا الآخرة

{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ * وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} (١)

{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ} وهي كلمة فيها من التثبيت ما يقضي على شبهات المضللين، ومحاولات الكائدين، وتلبيس الملقين وفي جرسها صرامة توحى بالجزم واليقين

{بَشِيرًا وَنَذِيرًا} وظيفتك البلاغ والأداء، تبشر الطائعين وتنذر العصاة، فينتهي دورك {وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} الذين يدخلون الجحيم بمعصيتهم، وتبعثهم على أنفسهم

وسيطل اليهود والنصارى يحاربونك، ويكيدون لك، ولا يسالمونك ولا يرضون عنك، إلا أن تحيد عن هذا الأمر، وإلا أن تترك هذا الحق، وإلا أن تتخلى عن هذا اليقين، تتخلى عنه إلى ما هم فيه من ضلال وشرك وسوء تصور كالذي سبق بيانه منذ قليل:

{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}

فتلك هي العلة الأصلية ليس الذي ينقصهم هو البرهان؛ وليس الذي ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق، وأن الذي جاءك من ربك الحق ولو قدمت إليهم ما قدمت، ولو توددت إليهم ما توددت لن يرضيهم من هذا كله شيء، إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق

إنها العقدة الدائمة التي نرى مصداقيتها في كل زمان ومكان إنها هي العقيدة هذه حقيقة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة

المسلمة إنها معركة العقيدة هي المشبوبة بين المعسكر الإسلامي وهذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما؛ وقد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينها، ولكنها تلتقي دائماً في المعركة ضد الإسلام والمسلمين!

إنها معركة العقيدة في صميمها وحقيقتها ولكن المعسكرين العريقين في العداوة للإسلام والمسلمين يلونانها بألوان شتى، ويرفعان عليها أعلاماً شتى، في خبث ومكر وتورية إنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة ومن ثم استدار الأعداء العريقون فغيروا أعلام المعركة لم يعلنوها حرباً باسم العقيدة - على حقيقتها - خوفاً من حماسة العقيدة وجيشانها إنما أعلنوها باسم الأرض، والاقتصاد، والسياسة، والمراكز العسكرية وما إليها وألقوا في روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها! ولا يجوز رفع رايتها، وخوض المعركة باسمها فهذه سمة المتخلفين المتعصبين! ذلك كي يأمنوا جيشان العقيدة وحماستها بينما هم في قرارة نفوسهم: الصهيونية العالمية والصليبية العالمية - بإضافة الشيوعية العالمية - جميعاً يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي نطحوها طويلاً، فأدمتهم جميعاً!!!

إنها معركة العقيدة إنها ليست معركة الأرض ولا الغلة ولا المراكز العسكرية ولا هذه الرايات المزيفة كلها إنهم يزيفونها علينا لغرض في نفوسهم دفين ليخدعونا عن حقيقة المعركة وطبيعتها، فإذا نحن خدعنا بخديعتهم لنا فلا نلومن إلا أنفسنا ونحن نبعد عن توجيه الله لنبيه ﷺ ولأمته، وهو - سبحانه - أصدق القائلين:

{وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}

فذلك هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه وما سواه فمرفوض ومردود!

ولكن الأمر الحازم، والتوجيه الصادق:

{قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ}

على سبيل القصر والحصر هدى الله هو الهدى وما عداه ليس بهدى فلا براح منه،

ولا فكاك عنه، ولا محاولة فيه، ولا ترضية على حسابه، ولا مساومة في شيء منه قليل أو كثير، ومن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر وحذار أن تميل بك الرغبة في هدايتهم وإيمانهم، أو صداقتهم ومودتهم عن هذا الصراط الدقيق

{وَلَنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}

بهذا التهديد المفزع، وبهذا القطع الجازم، وبهذا الوعيد الرهيب ولمن؟ لنبي الله ورسوله وحببيه الكريم!

إنها الأهواء إن أنت ملت عن الهدى هدى الله الذي لا هدى سواه وهي الأهواء التي تفقهم منك هذا الموقف؛ وليس نقص الحجة ولا ضعف الدليل

والذين يتجردون منهم من الهوى يتلون كتابهم حق تلاوته، ومن ثم يؤمنون بالحق الذي معك؛ فأما الذين يكفرون به فهم الخاسرون، لا أنت ولا المؤمنون!

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}

وأي خسارة بعد خسارة الإيمان، أعظم آلاء الله على الناس في هذا الوجود؟

وبعد هذا التقرير الحاسم الجازم ينتقل السياق بالخطاب إلى بني إسرائيل كأنما ليهتف بهم الهتاف الأخير، بعد هذه المجابهة وهذا الجدل الطويل، وبعد استعراض تاريخهم مع ربهم ومع أنبيائهم، وبعد الالتفات عنهم إلى خطاب النبي ﷺ وخطاب المؤمنين هنا يجيء الالتفات إليهم كأنه الدعوة الأخيرة، وهم على أبواب الإهمال والإغفال والتجريد النهائي من شرف الأمانة أمانة العقيدة التي نيّطت بهم من قديم وهنا يكرر لهم الدعوة ذاتها التي وجهها إليهم في أول الجولة يا بني إسرائيل

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا

لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ}

في القطاعات التي مضت من هذه السورة كان الجدل مع أهل الكتاب، دائراً كله حول سيرة بني إسرائيل، ومواقفهم من أنبيائهم وشرائعهم، ومن مواعيقهم وعهودهم، ابتداء من عهد موسى - عليه السلام - إلى عهد محمد ﷺ أكثره عن اليهود، وأقله عن النصارى، مع إشارات إلى المشركين، عند السمات التي يلتقون فيها مع أهل الكتاب، أو يلتقي معهم فيها أهل الكتاب

فالآن يرجع السياق إلى مرحلة تاريخية أسبق من عهد موسى يرجع إلى إبراهيم وقصة إبراهيم - على النحو الذي تساق به في موضعها هذا - تؤدي دورها في السياق، كما أنها تؤدي دوراً هاماً فيما شجر بين اليهود والجماعة المسلمة في المدينة من نزاع حاد متشعب الأطراف

إن أهل الكتاب ليرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق - عليهما السلام - ويعتزون بنسبتهم إليه، وبوعد الله له ولذريته بالنمو والبركة، وعهده معه ومع ذريته من بعده ومن ثم يحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على الدين، كما يحتكرون لأنفسهم الجنة أيا كان ما يعملون!

وإن قریشاً لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل - عليهما السلام - وتعتر بنسبتها إليه؛ وتستمد منها القوامة على البيت، وعمارة المسجد الحرام؛ وتستمد كذلك سلطانها الديني على العرب، وفضلها وشرفها ومكانتها

وقد وصل السياق فيما مضى إلى الحديث عن دعاوى اليهود والنصارى العريضة في الجنة: **{وَقَالُوا لَنْ نَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى}** وعن محاولتهم أن يجعلوا المسلمين يهوداً أو نصارى ليهدتوا **{وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا}** كذلك وصل إلى الحديث عن الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون في خرابها وقلنا هناك: إنها قد تكون خاصة بموقف اليهود من قضية تحويل القبلة، وبالذعاية المسمومة التي أثاروها في الصف الإسلامي بهذه المناسبة

فالآن يجيء الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق؛ والحديث عن البيت الحرام وبنائه وعمارته وشعائره في جوه المناسب، لتقرير الحقائق الخالصة في ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعاً حول هذه النسب وهذه الصلات ولتقرير قضية القبلة التي ينبغي أن يتجه إليها المسلمون كذلك تجيء المناسبة لتقرير حقيقة دين إبراهيم - وهي التوحيد الخالص - وبعد ما بينها وبين العقائد المشوهة المنحرفة التي عليها أهل الكتاب والمشركون سواء؛ وقرب ما بين عقيدة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب - وهو إسرائيل الذي ينتسبون إليه - وعقيدة الجماعة المسلمة بأخر دين ولتقرير وحدة دين الله، واطراده على أيدي رسله جميعاً، ونفي فكرة احتكاره في أيدي أمة أو جنس وبيان أن العقيدة تراث

القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء وأن وراثته هذا التراث لا تقوم على قرابة الدم والجنس ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة
 فمن آمن بهذه العقيدة ورعاها في أي جيل ومن أي قبيل فهو أحق بها من أبناء الصلب وأقرباء العصب! فالدين دين الله وليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا صهر!!!^(١)

* * * * *

المطلب السادس :

اتباع ملة ابراهيم عليه السلام:

{وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (١)

قوله تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ}

لم يبين هنا ما ملة ابراهيم وبينها بقوله: {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (٢)، فصرح في هذه الآية بأنها دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه محمداً ﷺ

وكذا في قوله: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ} (٣)

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ}

أشار إلى أنه دين الإسلام هنا بقوله: {فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}، وصرح بذلك (٤) في قوله: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} (٥)،

وقوله: {وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (٦)

قوله تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} معناه: لا أحد من الناس يكره ملة ابراهيم وينصرف عنها إلى الشرك بالله، إلا من امتهن نفسه، واستخف بها وظلمها بسوء رأيه حيث ترك طريق الحق إلى طريق الضلالة

ثم بين الله - تعالى - منزلة نبيه ابراهيم - عليه السلام - وخطأ من يرغب عن

(١) البقرة: ١٣٠ - ١٣٣.

(٢) الأنعام: ١٦١.

(٣) النحل: ١٢٣.

(٤) تفسير الشنقيطي صفحة ٢٠/.

(٥) آل عمران: ١٩.

(٦) آل عمران: ٨٥.

طريقته المثلى فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: ولقد اخترناه للرسالة وهداية الناس وإرشادهم في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين المستقيمين على الطريقة المثلى فمن يرغب عن ملة من هذا شأنه إلى غيرها من طرق الضلال لا يماتله أحد في سفهه وسوء رأيه

ثم بين الله تعالى كمال استقامة إبراهيم التي رفعتة إلى المنازل العليا فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أخلصت ديني لله الذي فطر الخلق جميعاً كما حكى عنه القرآن الكريم نحو هذا القول في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَبِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وبعد أن بين الله - تعالى - إن إبراهيم - عليه السلام - كان كاملاً في نفسه، أتبع ذلك ببيان أنه كان - أيضاً - يعمل على تكميل غيره، ودعوته إلى توحيد الله تعالى فقال - سبحانه: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

الضمير في " بها " يعود إلى الملة ذكرت قبل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ والمعنى: ووصى إبراهيم بنيه باتباع ملته ويعقوب كذلك أوصى بنيه باتباعها، فقال كل منهما لأبنائه: يا بني إن الله اصطفى لكم دين الإسلام، الذي لا يقبل الله ديناً سواه ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: فاثبتوا على الإسلام واستقيموا على أمره حتى يدرككم الموت وأنتم مقيمون على هذا الدين الحنيف

ثم أنكر القرآن الكريم على اليهود افتراءهم على يعقوب وزعمهم أنه كان على اليهودية التي أقاموا عليها تاركين دين الإسلام فقال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾

روى أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألسنت تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية، فنزلت هذه الآية الكريمة

والمعنى - ما كنتم - يا معشر اليهود - حاضرين وقت أن أشرف يعقوب على الموت، ووقت أن قال لبنيه حينئذ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ فكيف تدعون أنه كان على اليهودية التي أنتم عليها وأنه أوصى بها بنيه؟ ومراد يعقوب - عليه السلام - من هذا السؤال أخذ الميثاق عليهم بالثبات على ملة أبيهم إبراهيم من بعده، لكي يسعدوا في

دنياهم وأخراهم، وقد أجاوبه بما يدل على رسوخ إيمانهم إذ قالوا: ﴿تَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

وهذا الجواب يتضمن أنهم متمسكون بملة إبراهيم - عليه السلام - وهي ملة لا تتليث فيها ولا تشبيهه بمخلوق، وإنما هي أفراد الله - تعالى - بالعبودية والاستسلام له بالخضوع والانقياد ثم حذر الله - تعالى - أهل الكتاب من ترك طاعته اتكالا على انتسابهم لأبائهم كانوا أنبياء أو صالحين فقال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

الإشارة بـ ﴿تِلْكَ﴾ إلى إبراهيم وبنيه، أي أن إبراهيم وذريته، أمة قد مضت وانقرضت، لها جزء ما كسبت من خير أو شر، ولا تسألون يوم القيامة عن أعمالهم في الدنيا فلا يقال لكم على وجه المحاسبة لم عملوا كذا؟ وإنما ستسألون عن أعمالكم وحدها فأصلحوها وحسنوها، وآمنوا بمحمد ﷺ الذي هو دعوة إبراهيم - عليه السلام - وعلى دينه وملته

فالأية الكريمة واردة لتقرير سنة من سنن الله العامة في خلقه وهي أن لكل نفس وحدها ثواب ما كسبت من خير وعليها وحدها يقع عقاب ما اكتسبت من شر وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت بوضوح لبني إسرائيل وغيرهم أن ملة إبراهيم الإسلام وأنه هو ويعقوب - عليهما السلام - قد أوصيا أبناءهما بأن يثبتوا على هذه الملة حتى الموت، وأن أبناء يعقوب قد عاهدوه عند موته أن يستمروا على ملته وملة إبراهيم عليهما السلام

وهذا الذي بينته الآيات الكريمة يطابق ما دعاهم إليه محمد ﷺ وهو الإيمان بالله - تعالى - وتصديق رسوله واتباع تعاليم الإسلام

وفي القرآن الكريم آيات أخرى صرحت بأن الإسلام اسم للدين الذي دعا إليه كل الأنبياء، وانتسب إليه أتباعهم فنوح قال لقومه: ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وموسى قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ والحواريون قالوا لعيسى - عليه السلام: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ بل إن فريقا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن أشرفت قلوبهم لدعوته وقالوا: ﴿آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّنَا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ وإلى هنا

نكون قد ذكرنا بعض الآيات الكريمة التي أرشدت إلى أن ما جاء به محمد ﷺ يطابق ما جاء به الأنبياء السابقون، فعليهم أن يؤمنوا به ويصدقوا، لأن كفرهم به كفر بجميع الرسل السابقين

وقبل أن نختم هذا الموضوع ننبه إلى مسألة مهمة، وهي: أن ما جاء به النبي ﷺ يطابق - كما قلنا - ما جاء به الأنبياء قبله في أصول الدين وكتباياته كتوحيد الله - تعالى - واختصاصه بالعبادة، وتصديق الأنبياء السابقين فيما أتوا به عن الله - تعالى - والإيمان بالبعث وما يكون فيه من نعيم وعذاب والحض على مكارم الأخلاق، أما ما عدا ذلك مما يتعلق بتفاصيل العبادات وأحكام المعاملات فإن الشرائع تختلف فيه بوجه عام حسب ما يتناسب وحالة الأمة التي بعث الله لها رسولا منكم قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ ومن هنا جاءت الشريعة الإسلامية بما لم يكن موجوداً في الشرائع السابقة، ومن مظاهر ذلك أن القرآن الكريم أعلن للناس، أن محمداً ﷺ من مميزات شريعته أنها أحلت للناس كل الطيبات وحرمت عليهم كل الخبائث ووضعت عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم وشرعت لهم أموراً تتعلق بعباداتهم ومعاملاتهم امتازت باليسر والتخفيف

ويعجبني في هذا المقام قول فضيلة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز: يجب أن يفهم - أن تعديل الشريعة المتأخرة للمتقدمة - ليس نفضاً لها، وإنما وقوفاً بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدر

مثل ذلك كمثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل في الطور الأول من حياته، فقصر غذاءه على اللبن، وجاء الثاني من مرحلته التالية فقرر له طعاماً ليناً، وطعاماً نشويماً خفيفاً، وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها فأمر له بغذاء قوي كامل

لا ريب أن ها هنا اعترافاً ضمناً من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقاً كل التوفيق في علاج الحالة التي عرضت عليه، نعم إن هناك قواعد صحية عامة في النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها، لا تختلف باختلاف الأسنان فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين

هكذا الشرائع السماوية، كلها صدق وعدل في جملتها وتفصيلها، وكلها يصدق بعضها بعضاً من ألفها إلى يائها، ولكن هذا التصديق على ضربين:

تصديق للقديم مع الإذن ببقائه واستمراره، وتصديق له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية، ذلك أن التشريعات السماوية تحتوي على نوعين من التشريعات (تشريعات خالدة) لا تتبدل بتبديل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا التسع ونحوها)

و (تشريعات موقوتة) بأجال طويلة أو قصيرة، فهذه تنتهي بانتهاء وقتها وتجيء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة

فشريعة التوراة - مثلاً - عنيت بوضع المبادئ الأولية لقانون السلوك (لا تقبل) (لا تسرق) فطابعتها البارز تحديد الحقوق وطلب العدل والمساواة

وشريعة الإنجيل تجيء بعدها فتقرر هذه الأمور، ثم تترقى فتزيد آداباً مكملة (أحسن إلى من أساء إليك)

وأخيراً تجيء شريعة القرآن فنراها تقرر كلا المبدئين في نسق واحد **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾** هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات مترامية في بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أن أكملت البنين وملأت ما بقي فيه من فراغ وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء

وصدق رسول الله ﷺ حين صور الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير فقال: **«مثلى ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتاً فأحسن وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»**

وبذلك يتبين لنا أن مطابقة الشريعة الإسلامية لغيرها من الشرائع السابقة إنما هي في الأصول والكليات، لا في الفروع والجزئيات

ثم حكى القرآن بعد ذلك لونا من ألوان مزاعم أهل الكتاب ورد عليها بما يبطلها فقال:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: " قال عبد الله بن سوريا الأعور لرسول الله ﷺ ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا - يا محمد - تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله

- عز وجل: **﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**

ومعنى الآية الكريمة: وقالت اليهود للنبي ﷺ وللمسلمين اتركوا دينكم واتبعوا ديننا تهتدوا وتصيبوا طريق الحق وقالت النصارى مثل ذلك قل لهم - يا محمد - ليس الهدى

في اتباع ملتكم، بل الحق في أن نتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، فاتبعوا أنتم - يا معشر أهل الكتاب - ما اتبعناه لتكونوا حقاً سالكين ملة إبراهيم الذي لا تنازعون في هداة

وقوله تعالى: **{وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا}** حكاية لما زعمه كل من فريق اليهود والنصارى من أن الهدى في اتباع ملتهم

و (أو) للتبويح، أي قال اليهود لغيرهم لا دين إلا اليهودية ولا يتقبل الله سواها، فاتبعوها تهتدوا وقال النصارى لغيرهم: كونوا نصارى تهتدوا، إلا أن القرآن الكريم ساق هذا المعنى بقوله: **{وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا}** لمعرفة السامع أن كل فريق منهم يكفر الآخر، ويعد ديانتهم باطلة، كما حكى القرآن عنهم ذلك في قوله تعالى: **{وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ}** ثم لقن الله - تعالى - نبيه ﷺ الرد الملزم لهم، فقال تعالى: **{قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}**

الملة: الدين، والحنيف في الأصل المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق ووصف به إبراهيم - عليه السلام - لميله عن الأديان الباطلة التي كانت موجودة في عهده إلى الدين الحق الذي أوحى الله به إليه

وذهب بعض المفسرين إلى أن حنيفاً من الحنف وهو الاستقامة

قال الإمام الرازي: " لأهل اللغة في الحنيف قولان:

الأول: أن الحنيف هو المستقيم، ومنه قيل للأعرج: أحنف تفاؤلاً بالسلامة، كما قالوا للذبيح: سليم وللمهلكة: مفازة، قالوا: فكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه في شيء فهو حنيف، وهو مروى عن محمد بن كعب القرظي

الثاني: أن الحنيف: المائل، لأن الأحنف هو الذي يميل كل واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها وتحنف إذا مال، فالمعنى: إن إبراهيم - عليه السلام - حنف إلى دين الله، أي مال إليه، فقوله: **{بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً}** أي: مخالفاً لليهود والنصارى

والمعنى: قل يا محمد لليهود ليس الهدى في أن نتبع ملتكم، بل الهدى في أن نتبع ملة إبراهيم المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق، والذي ما كان من المشركين بأي صورة من صور الشرك "

وفي هاتين الجملتين وهما قوله تعالى: **{بَلْ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}** **{وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** دعوة لليهود إلى اتباع ملة إبراهيم لاستقامتها، ولبعدها عن الشرك، وفي ذلك تعريض بأن ملتهم ليست مستقيمة، بل هي معوجة، وبأن دعواهم اتباع إبراهيم لا أساس لها من الصحة؛ لأنهم أشركوا مع الله آلهة أخرى، ونسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق به

قال الإمام الرازي - ما ملخصه: في الآية الكريمة جواب إلزامي لهم وهو قوله تعالى: **{بَلْ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}** وتقرير هذا الجواب: أنه إن كان طريق الدين التقليدي، فالأولى في ذلك اتباع ملة إبراهيم لأن هؤلاء المختلفين قد انفقوا على صحة دين إبراهيم، والأخذ بالمتفق عليه، أولى من الأخذ بالمختلف فيه

وإن كان طريقه الاستدلال والنظر فقد سقنا الكثير من الدلائل على أن ما جاء به محمد ﷺ هو الموافق لما جاء به إبراهيم - عليه السلام - في أصول الدين

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى جواب جامع وكلمة سواء تفيد نبذ التعصب جانباً وتدعو إلى اتباع الوحي الإلهي الذي أرسل الله به الرسل مبشرين ومنذرين بدون تفرقة بين أحد منهم، وهو يتضمن دعوة أهل الكتاب إلى الطريق الحق فقال تعالى: **{قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}**

أي: قولوا أيها المؤمنون لأولئك اليهود الذين يزعمون أن الهداية في اتباع ملتهم، قولوا لهم: ليست الهداية في اتباع ملتكم فقد دخلها الشرك والتحريف، وإنما الهداية في أن نصدق بالله، وبالتوراة الذي أنزله الله على موسى وبالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، ونحن في تصديقنا بالأنبياء لا نفرق بين أحد منهم فنؤمن ببعضهم ونكفر بالبعض الآخر كما فعلتم أنتم يا معشر اليهود وإنما نؤمن بهم جميعاً بدون تفرقة بينهم، ونحن لربنا مسلمون خاضعون بالطاعة مذعنون له بالعبودية

قال الإمام الرازي: " فإن قيل: كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة؟ قلنا: نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقاً في زمانه، فلا يلزم منا المناقضة، أما اليهود فإنهم لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز على يديه، وأنكروا نبوة محمد ﷺ مع قيام المعجز على يديه، فحينئذ يلزمهم المناقضة فظهر الفرق

وقوله تعالى: **{قُولُوا آمَنَّا}** خطاب للمؤمنين

والأسباط: جمع سبط، وهو الحفيد، وهم أبناء يعقوب - عليه السلام - سموا بذلك لكونهم حفدة إبراهيم وإسحاق - عليها السلام - وكانوا اثني عشر سبطاً كما قال

تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنِي عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ والمراد: الإيمان بما أنزل الله من الوحي على الأنبياء منهم

قال الإمام القرطبي: والأسباط: ولد يعقوب، وهم اثنا عشر ولداً، ولكل واحد منهم أمة من الناس، واحدهم سبط، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل، وسموا الأسباط من السبط وهو التابع، فهم جماعة متتابعون، وقيل أصله من السبط "بالتحريك" وهو الشجر، أي هم في الكثرة بمنزلة الشجرة: الواحد سبطه، وبين لك هذا ما روى عن ابن عباس، قال: كل الأنبياء من إسرائيل إلا عشرة: نوحا وشعيبا، وهودا وصالحا ولوطا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمداً - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً"

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْتِيَ موسى وعيسى وَمَا أُوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ معناه: وأما - أيضاً - بالتوراة التي أعطاها الله - تعالى - لموسى، وبالإنجيل الذي أعطاه لعيسى، وبكل ما أتاه الله لأنبيائه تصديقاً لهم في نبوتهم

وعطف - سبحانه - عيسى على موسى بدون إعادة الفعل لأن عيسى جاء مصدقاً للتوراة، وما نسخ منها إلا أحكاماً يسيرة، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله حكاية عنه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الَّذِي كُفِّرْتُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وقدم - سبحانه - الإيمان بالله على غيره لأن الإيمان بالأنبياء وما أنزل إليهم متوقف على الإيمان بالله - وقدم الإيمان بما أنزل إلينا - نحن معشر المسلمين - وهو القرآن الكريم لأن الإيمان به يجب أن يكون على وجهي الإجمال والتفصيل، أما ما أنزل على الأنبياء من قبل كالتوراة والإنجيل، فيكفي الإيمان به على وجه الإجمال

وقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ معناه: لا نفرق بين جماعة النبيين، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلتم يا معشر اليهود، إذ كفرتم بعيسى ومحمد ﷺ وفعلكم هذا في حقيقته كفر بالأنبياء جميعاً لأن من كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل، ولذلك فنحن معشر المسلمين نؤمن بجميع الأنبياء بدون تفرقة أو استثناء⁽¹⁾

* * * * *

(1) تفسير سيد طنطاوى المكتبة الشاملة صفحة/ ٢٠.

المطلب السابع:

صبغة الله: شريعته وسنته وفطرته

{صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ * قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنْتُمْ أَغْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ
اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا
كَانُوا يَعْمَلُونَ} (١)

{صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} صبغة الله التي شاء لها أن
تكون آخر رسالاته إلى البشر لتقوم عليها وحدة إنسانية واسعة الأفاق، لا تعصب فيها
ولا حقد، ولا أجناس فيها ولا ألوان

ونقف هنا عند سمة من سمات التعبير القرآني ذات الدلالة العميقة إن صدر هذه الآية
من كلام الله التقريري: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} أما باقيها فهو من كلام
المؤمنين

يلحقه السياق - بلا فاصل - بكلام البارئ سبحانه في السياق وكله قرآن منزل ولكن
الشرط الأول حكاية عن قول الله، والشرط الثاني حكاية عن قول المؤمنين وهو تشریف
عظيم أن يلحق كلام المؤمنين بكلام الله في سياق واحد، بحكم الصلة الوثيقة بينهم وبين
ربهم، وبحكم الاستقامة الواصلة بينه وبينهم وأمثال هذا في القرآن كثير وهو ذو مغزى
كبير ثم تمضي الحجة الدامغة إلى نهايتها الحاسمة:

{قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ}

ولا مجال للجدل في وحدانية الله وربوبيته فهو ربنا وربكم، ونحن محاسبون
بأعمالنا، وعليكم وزر أعمالكم ونحن متجردون له مخلصون لا نشرك به شيئاً، ولا
نرجو معه أحداً وهذا الكلام تقرير لموقف المسلمين واعتقادهم؛ وهو غير قابل للجدل
والمحاجة واللجاج

ومن ثم يضرب السياق عنه، وينتقل إلى مجال آخر من مجالات الجدل يظهر أنه

(١) البقرة: ١٣٨، ١٤١.

هو الآخر غير قابل للجاجة والمحال: **{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى}**

وهم كانوا أسبق من موسى، وأسبق من اليهودية والنصرانية والله يشهد بحقيقة دينهم - وهو الإسلام كما سبق البيان - **{قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ}**

وهو سؤال لا جواب عليه! وفيه من الاستنكار ما يقطع الألسنة دون الجواب عليه!

ثم إنكم لتعلمون أنهم كانوا قبل أن تكون اليهودية والنصرانية وكانوا على الحنيفية الأولى التي لا تشرك بالله شيئاً ولديكم كذلك شهادة في كتبكم أن سبيعث نبي في آخر الزمان دينه الحنيفية، دين إبراهيم ولكنكم تكتمون هذه الشهادة: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ}**

والله مطلع على ما تخفون من الشهادة التي ائتمنتم عليها، وما تقومون به من الجدل فيها لتعميتها وتلبيسها: **{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}**

وحين يصل السياق إلى هذه القمة في الإفحام، وإلى هذا الفصل في القضية، وإلى بيان ما بين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وبين اليهود المعاصرين من مفارقة تامة في كل اتجاه عندئذ يعيد الفاصلة التي ختم بها الحديث من قبل عن إبراهيم وذريته المسلمين: **{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** وفيها فصل الخطاب، ونهاية الجدل، والكلمة الأخيرة في تلك الدعاوى الطويلة العريضة^(١)

{صِبْغَةَ اللَّهِ} قال الضحاك، عن ابن عباس: دين الله وكذا روي عن مجاهد، وأبي العالية، وعكرمة، وإبراهيم، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعبد الله بن كثير، وعطية العوفي، والربيع بن أنس، والسدي، نحو ذلك

وانتصاب **{صِبْغَةَ اللَّهِ}** إما على الإغراء كقوله: **{فِطْرَتَ اللَّهِ}**^(٢) أي: الزموا ذلك عليكم وقال بعضهم: بدل من قوله: **{مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ}** وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن

(١) الضلال / سيد قطب / ٢١ .

(٢) الروم: ٣٠ .

قوله: {آمَنَّا بِاللَّهِ} كقوله: {وَأَعْبُدُوا اللَّهَ} (١)

وعن ابن عباس أن نبي الله قال: "إن بني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل يصنِّع ربك؟ فقال: اتقوا الله فناداه ربه: يا موسى، سألوكم هل يصنِّع ربك؟ فقل: نعم، أنا أصنِّع الألوان: الأحمر والأبيض والأسود، والألوان كلها من صبغِي" وأنزل الله على نبيه ﷺ: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} (٢)

{صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ}

أي: الزموا صبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة، وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعاً واختياراً ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحث الدين على مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ومعالي الأمور، فلهذا قال - على سبيل التعجب المتقرر للعقول الزكية -: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} أي: لا أحسن صبغة من صبغته

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ، ففس الشيء بضده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونبع جليل، ويتحلى من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب، فوصفه: الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القولي والفعلي، ومحبة الله وخشيته، وخوفه، ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبيده، ففسه بعبد كفر بربه، وشرده عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين فاتصف بالصفات القبيحة، من الكفر، والشرك والكذب، والخيانة، والمكر، والخداع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق، في أقواله، وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبده

فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن صبغة من صبغة الله،

(١) النساء: ٣٦.

(٢) تفسير ابن كثير / ٢٠.

وفي ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه

وفي قوله: **{وَتَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ}** بيان لهذه الصبغة، وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة، لأن "العبادة" اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك، حتى يشرعها الله على لسان رسوله، والإخلاص: أن يقصد العبد وجه الله وحده، في تلك الأعمال، فتقديم المعمول، يؤذن بالحصص

وقال: **{وَتَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ}** فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار، ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صبغة لهم ملازماً **{قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَتَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ}**

المحاجة هي: المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق بالمسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله، وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما، يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها، أن تكون بالتالي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقيم الحجة على المعاند، ويوضح الحق، ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت ممارسة، ومخاصمة لا خير فيها،

وأحدثت من الشر ما أحدثت، فكان أهل الكتاب، يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى، تفتقر إلى برهان ودليل فإذا كان رب الجميع واحداً، ليس ربا لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوينا نحن وإياكم بذلك فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء، من غير فرق مؤثر، دعوى باطلة، وتفریق بين متماتلين، ومكابرة ظاهرة وإنما يحصل التفضيل، بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة، وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص، هو الطريق إلى الخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول، ولا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية، إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماتلين، والفرق بين المختلفين

{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}

وهذه دعوى أخرى منهم، ومحاجة في رسل الله، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين

فرد الله عليهم بقوله: **{أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ}** فالله يقول: **{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** وهم يقولون: بل كان يهودياً أو نصرانياً، فإما أن يكونوا، هم الصادقين العالمين، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، حتى إنه - من وضوحه - لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك، لانجلائه لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور، أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء، لم يكونوا هودا ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم ولهذا قال تعالى: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ}** فهي شهادة عندهم، مودعة من الله، لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها، وأظهروا ضدها، جمعوا بين كتم الحق، وعدم النطق به، وإظهار الباطل، والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة، فلهذا قال: **{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}** بل قد أحصى أعمالهم، وعداها وادخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئست النار، مثوى للظالمين، وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها فيفيد ذلك الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ويفيد أيضا ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام، أن الأمر الديني والجزائي، أثر من أثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له

ثم قال تعالى: **{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** كررها، لقطع التعلق بالمخلوقين، وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان، لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرد للرجال^(١)

* * * * *

(١) تفسير السعدى المكتبة الشاملة الإلكترونية / ٢١.

المطلب الثامن : حكمة تحويل القبلة

{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} (١)

حدث تحويل القبلة، والملابسات التي أحاطت به، والدسائس التي حاولها اليهود في الصف المسلم بمناسبةه والأقاويل التي أطلقوها من حوله؛ ومعالجة آثار هذه الأقاويل في نفوس بعض المسلمين وفي الصف المسلم على العموم

ولا توجد رواية قطعية في هذا الحادث، كما أنه لا يوجد قرآن يتعلق بتاريخه بالتفصيل والآيات الخاصة به هنا تتعلق بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة وكان هذا في المدينة بعد ستة عشر أو سبعة عشر شهراً من الهجرة

ومجموع الروايات المتعلقة بهذا الحادث يمكن أن يستنبط منها - بالإجمال - أن المسلمين في مكة كانوا يتوجهون إلى الكعبة منذ أن فرضت الصلاة - وليس في هذا نص قرآني - وأنهم بعد الهجرة وجهوا إلى بيت المقدس بأمر إلهي للرسول ﷺ يرجح أنه أمر غير قرآني ثم جاء الأمر القرآني الأخير: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} فنسخه

وعلى أية حال فقد كان التوجه إلى بيت المقدس - وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى - سبباً في اتخاذ اليهود إياه ذريعة للاستكبار عن الدخول في الإسلام، إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول، بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين، وقبلتهم هي القبلة؛ وأنهم هم الأصل، فأولى بمحمد ومن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول في الإسلام!

(١) البقرة: ١٤٤، ١٤٧.

وفي الوقت ذاته كان الأمر شاقاً على المسلمين من العرب، الذين ألفوا في الجاهلية أن يعظموا حرمة البيت الحرام؛ وأن يجعلوه كعبتهم وقبلتهم وزاد الأمر مشقة ما كانوا يسمعون من اليهود من التبجح بهذا الأمر، واتخاذهم حجة عليهم!

وكان الرسول ﷺ يقلب وجهه في السماء متجهاً إلى ربه، دون أن ينطق لسانه بشيء، تأدباً مع الله، وانتظراً لتوجيهه بما يرضاه

ثم نزل القرآن يستجيب لما يعتلم في صدر الرسول ﷺ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾

وتقول الروايات: إن هذا كان في الشهر السادس عشر أو السابع عشر من الهجرة، وإن المسلمين حينما سمعوا بتحويل القبلة، كان بعضهم في منتصف صلاة، فحولوا وجوههم شطر المسجد الحرام في أثناء صلاتهم، وأكملوا الصلاة تجاه القبلة الجديدة

عندئذ انطلقت أبواق - يهود وقد عز عليهم أن يتحول محمد ﷺ والجماعة المسلمة عن قبلتهم، وأن يفقدوا حجتهم التي يرتكون إليها في تعاضهم وفي تشكيك المسلمين في قيمة دينهم - انطلقت تلقي في صفوف المسلمين وقلوبهم بذور الشك والقلق في قيادتهم وفي أساس عقيدتهم

قالوا لهم: إن كان التوجه - فيما مضى - إلى بيت المقدس باطلاً فقد ضاعت صلاتكم طوال هذه الفترة؛ وإن كانت حقاً فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل، وضائعة صلاتكم إليه كلها وعلى أية حال فإن هذا النسخ والتغيير للأوامر - أو للآيات - لا يصدر من الله، فهو دليل على أن محمداً لا يتلقى الوحي من الله!

وتبين لنا ضخامة ما أحدثته هذه الحملة في نفوس بعض المسلمين وفي الصف الإسلامي من مراجعة ما نزل من القرآن في هذا الموضوع، منذ قوله تعالى: ﴿مَا نُنَسِّخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ - وقد استغرق درسين كاملين في الجزء الأول - ومن مراجعة هذا الدرس في هذا الجزء أيضاً ومن التوكيدات والإيضاحات والتحذيرات التي سندرسها فيما يلي تفصيلاً عند استعراض النص القرآني

أما الآن فنقول كلمة في حكمة تحويل القبلة، واختصاص المسلمين بقبلة خاصة بهم يتجهون إليها فقد كان هذا حادثاً عظيماً في تاريخ الجماعة المسلمة، وكانت له آثار

ضخمة في حياتها

لقد كان تحويل القبلة أولاً عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحكمة تربوية أشارت إليها آية في هذا الدرس: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ﴾ فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدون عنوان مجدهم القومي ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نكرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم فقد نزعهم نزاعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه - فترة - إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعاً مجرداً من كل إيحاء آخر، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازاً بنكرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ؛ أو تنلبس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضمير أي تلبس من قريب أو من بعيد حتى إذا استسلم المسلمون، واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول ﷺ وفي الوقت ذاته بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم، صدر الأمر الإلهي الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام ولكنه ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى بشأنه هي حقيقة الإسلام حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون خالصاً لله، وليكون تراثاً للأمة المسلمة التي نشأت تلبية لدعوة إبراهيم ربه أن يبعث في بنيه رسولاً منهم بالإسلام، الذي كان عليه هو وبنوه وحفدته^(١)

ولئن جئت - يا محمد - اليهود ومن على طريقتهم في الكفر بكل برهان وحجة، بأن الحق هو ما جئتهم به، من فرض التحول من قبلة بيت المقدس في الصلاة إلى قبلة المسجد الحرام، ما صدقوا به، لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة يزيلها الدليل، وإنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما في كتبهم من أنك على الحق المبين وما أنت - يا محمد - بتابع قبلتهم، لأنك على الهدى وهم على الضلال وفي هذه

(١) الظلال / سيد قطب / ٢٢.

الجملة الكريمة حسم لأطماعهم، وتقرير لحقبة القبلة إلى الكعبة، بعد أن أشاعوا بأن النبي ﷺ لو ثبت على قبلتهم لكانوا يرجون أنه النبي المنتظر، فقطع القرآن الكريم آمالهم في رجوع النبي ﷺ إلى قبلتهم، وأخبر بأنه ليس بتابع لها

ثم ذكر القرآن الكريم اختلاف أهل الكتاب في القبلة، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى فقال تعالى: {وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعِ قِبْلَةِ بَعْضٍ} أي: ما اليهود بمتبعين لقبلة النصارى ولا النصارى بمتبعين لقبلة اليهود، فهم مع اتفاقهم على مخالفتك، مختلفون في باطلهم وذلك لأن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس

ثم ساق القرآن الكريم بعد ذلك تحذيراً للأمة كلها من اتباع أهل الكتاب، وجاء هذا التحذير في شخص النبي ﷺ فقال تعالى: {وَلَنْ اتَّبَعَ أَهْوَاءَهُمْ مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ}

أي: لئن اتبعت - يا محمد - قبلتهم - على سبيل الفرض، والتقدير من بعد وضوح البرهان وإعلامي إياك بإقامتهم على الباطل، إنك إذا لمن الظالمين لأنفسهم، المخالفين لأمري

فالآية الكريمة: وعيد وتحذير للأمة الإسلامية من اتباع آراء اليهود المنبعثة عن الهوى والشهوة، وسيق الوعيد والتحذير في صورة الخطاب للرسول ﷺ الذي لا يتوقع منه أن يتبع أهواء أهل الكتاب، تأكيداً للوعيد والتحذير، فكأنه يقول: "لو اتبع أهواءهم أفضل خليفة، وأعلام منزلة عندي، لجازيته مجازاة الظالمين، وأحق بهذه المجازاة وأولى من كانوا دونه في الفضل وعلو المنزلة إن اتبعوا أهواء المبطلين وهم اليهود ومن كان على شاكلتهم من المشركين" قال صاحب الكشاف: "فإن قلت: كيف قال وما أنت بتابع قبلتهم ولهم قبلتان، لليهود قبلة وللنصارى قبلة؟

قلت: كلنا القبليتين باطلة، مخالفة لقبلة الحق، فكانت بحكم الاتحاد في البطلان قبلة واحدة "

ثم بين القرآن الكريم أن أهل الكتاب يعرفون صدق الرسول ﷺ معرفة لا

يخالطها شك فقال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}

أي: أن أحبار اليهود وعلماء النصارى يعرفون صدق رسالة النبي ﷺ ويعرفون أن توجهه إلى البيت الحرام حق، كما يعرفون أبناءهم فهو تشبيه للمعرفة العقلية الحاصلة من مطالعة الكتب السماوية، بالمعرفة الحسية في أن كلا منهما يقين لا اشتباه فيه

قال الإمام ابن كثير: " يخبر الله أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاء به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا كما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صبي صغير: «ابنك هذا؟» قال: نعم يا رسول الله أشهد به، قال: «أما إنه لا يخفي عليك ولا تخفى عليه» ويروى عن عمر أنه قال: لعبد الله بن سلام: " أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ولدك؟ قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته، وإني لا أدري ما كان من أم ولدي، فقبل عمر - رضي الله عنه - رأسه "

أي: وإن طائفة من أهل الكتاب مع ذلك التحقيق والإيقان العلمي من أنك على حق في كل شؤونك ليطمادون في إخفائه وجحوده، وهم يعلمون ما يترتب على ذلك الكتمان من سوء المصير لهم في الدنيا والآخرة - ثم ثبت الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين، فأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا شك فيه

أي: اعلم - يا محمد - أن ما أوحى إليك وأمرت به من التوجه إلى المسجد الحرام هو الحق الذي جاءك من ربك، وأن ما يقوله اليهود وغيرهم من المشركين هو الباطل الذي لا شك فيه، فلا تكونن من الشاكين في كتمانهم الحق مع علمهم به، أو في الحق الذي جاءك من ربك وهو ما أنت عليه في جميع أحوالك ومن بينها التوجه إلى المسجد الحرام

والشك غير متوقع من الرسول ﷺ ولذلك قال المفسرون: إن النهي موجه إلى الأمة في شخص نبيها ﷺ إذ كان فيها حديثو عهد بكفر يخشى عليهم أن يفتنوا بزخرف من القول يروج به أهل الكتاب شبيهاً تعلق بأذهان من لم يرسخ

الإيمان في قلوبهم

وقد وضع ابن جرير - رحمه الله - هذا المعنى بقوله:

فإن قال لنا قائل: " أو كان النبي ﷺ شاكا في أن الحق من ربه أو في أن القبلية التي وجهه الله إليها حق من الله - تعالى - حتى نهى عن شك في ذلك؟ فقيل له: {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}

قيل: ذلك من الكلام الذي تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهي للمخاطب به، والمراد به غيره كما قال جل ثناؤه:

{يَأْيُهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} ^(١) ثم قال: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} فخرج الكلام مخرج الأمر للنبي ﷺ والنهي له والمراد به أصحابه المؤمنون به ^(٢)

* * * * *

(١) الأحزاب: ١.

(٢) تفسير سيد طنطاوى المكتبة الشاملة صفحة / ٢٣.